

" التطرف الفكري... وأزمة الوعي الديني "

بحث مقدم للمؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري

«المفاهيم والتحديات»

في الفترة من ٢٢-٢٥ جماد الأول ١٤٣٠ هـ

كرسي الأمير نايف بن عبد العزيز لدراسات

الأمن الفكري بجامعة الملك سعود

للدكتور مسفر بن علي بن محمد القحطاني

أستاذ أصول الفقه المشارك

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين .
 يعد مصطلح " التطرف الفكري " من المصطلحات الشائعة في الأزمنة الأخيرة نتيجة بروز
 عدد من التيارات التي تتخذ العنف وسيلة للتغيير والإصلاح سواء كانوا من مسلمين أو غيرهم .
 وهذه الظاهرة الخطيرة التي باتت تهدد العالم في أمنه واستقراره وتعيد للأذهان صور الدمار
 والخراب التي خلفتها أعمال هذه الجماعات المنحرفة ؛ منشؤها الحقيقي هو الفكر .
 فعندما يتطرف الفكر ويتجه نحو التشدد والغلو تترجمه الأفعال على هيئة جرائم واعتداءات
 ومظاهر تدمير للأنفس والمجتمعات لا تقبل بها العقول ولا الشرائع .
 ولعلي من خلال هذه الورقات أن أسلط الضوء على التطرف الفكري عند المسلمين وآثاره
 الخطيرة على مستوى الأفراد والمجتمعات من خلال النقاط الآتية :-
أولاً : مفهوم التطرف الفكري .

تستعمل كلمة " تطرف " في اللغة على معنيين :

الأول : حد الشيء .

الثاني : الحركة في بعض الأعضاء .^[1] والذي يهمنا هو المعنى الأول وهو حد الشيء وحرفه ،
 أو غاية الشيء ومنتهاه ، وعليه فالتطرف تفعل من الطرف ، فمن تجاوز حد الاعتدال يصح في
 اللغة أن يسمى بالمتطرف ، جاء في المعجم الوسيط ما يؤكد هذا المعنى في قوله في معنى تطرف : "
 تجاوز حد الاعتدال ولم يتوسط " .^[2]

ويمكن تحديد مفهوم التطرف الفكري من الناحية الاصطلاحية بأنه : " الغلو والتنطع في قضايا
 الشرع ، والانحراف المتشدد في فهم قضايا الواقع والحياة " . فالميل نحو أي طرف سواء كان غلوّاً
 أو تقصيراً ، تشدداً أو انحلالاً يعتبر أمراً مذموماً في العقل والشرع والذي دعاني في البداية إلى
 تحديد هذا المفهوم وضبط معناه الاستعمال الشائع لهذا المصطلح والذي حمل معه الكثير من
 التجاوزات والمبالغات ، فلم يسلم مصطلح " التطرف الفكري " من تطرف في فهمه واتهام الغير

(1) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤٤٧ / ٣ .

(2) المعجم الوسيط ٥٦١ / ٢ .

به من غير مبرر علمي أو مسوّغ لغوي . يشهد لهذه التجاوزات في الواقع ما وصف به الدين الإسلامي بأنه دين متطرف ودعائه أصوليون منتطعون ، والحقيقة الشرعية والعقلية تنفي هذا عن الإسلام ولا يُحمل بعض التصرفات المتشددة وأعمال العنف عند بعض أبنائه أنه جزء من أحكامه .

وهذا الشيوع في استعمال التطرف على الدعوات الإسلامية المعاصرة على وجه الخصوص جاء من المجتمعات الغربية كترجمة للكلمة الإنجليزية (**extremism**) مقترناً بمصطلح الأصولية التي تعني بالإنجليزية (**fundamentalism**) .

والأصولية في معجم " وبستر " مصطلح أطلق على حركة احتجاج مسيحية ظهرت في القرن العشرين، تؤكد على ضرورة التفسير الحرفي للكتاب المقدس كأساس للحياة الدينية الصحيحة . وهو يطلق أيضاً على أي حركة أو اتجاه يشدد بثباتٍ على التمسك الحرفي بمجموعة قيم ومبادئ أساسية . [3]^(٣)

فالعودة للأصول الإسلامية والتمسك بها لا يعني بتاتاَ التطرف والانحراف أو التشدد والغلو في العمل للإسلام . بل على العكس تماماً نجد أن التمسك الحقيقي بالدين والعودة إلى معينه الصافي (الكتاب والسنة) يقتضي من المسلم الرأفة والرحمة بالناس والتعايش مع المخالف والرفق بالمعاند ونبد التشدد والغلو مع الآخر والتأكيد على ضمان الأمن والاستقرار والسلام لعموم أفراد المجتمع مهما كانت ديانتهم .

لهذا كان من المهم التأكيد على ضبط المصطلحات وفق دلالاتها اللغوية والشرعية وعدم توظيفها في معاني مخالفة تؤدي إلى عكس ما وضعت له أحياناً ، أو تستغل لإرضاء نزوات وأهواء سياسية . فالمصطلح ليس شكلاً للفظ فقط بل هو مضمون لمعناه ومرآة حقيقية للفكر والتاريخ والتراث .

ثانياً : الفكر الإسلامي وعلاقته بالتطرف :

[3]^(٣) انظر : مجلة التقريب لعدد ٣٦ سنة ١٤٢٤هـ مقال : مفهوم التطرف . قراءة في شروط الوسطية والاعتدال للدكتور أحمد صدقي الدجاني .

البقرة: ١٤٣

ولهذا كانت الوسطية مِيزَةً وخصيصة لهذه الشريعة الإسلامية فحاربت كل اتجاه أو فكر ينزع إلى الغلو أو التطرف فجاءت أحكامه ونصوصه لتوازن بين المادية والروحية ، وبين أمور الدنيا والآخرة ، وبين حقوق النفس وحقوق الخلق وحقوق الله عز وجل ، حتى انفعالات النفس

(7) رواه الدارمي ٢ / ١٣٣ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٥٧٣) .

وعواطفها أمرنا بالاعتدال والتوسط في ممارستها كما في الحب والكره ، والغضب والرضا ، والإقدام والخوف ، الشك واليقين . . . وغيرها .

كما لم يكتف الإسلام بالتحذير من الغلو والتقطع كجانب علاجي بل أمر بالسماحة واليسر في الأمور كلها كجانب وقائي يقول الله تعالى : **﴿ كُذِّبُوا وَذُوقُوا وَذُوقُوا ﴾** **البقرة: ١٨٥** وقوله تعالى : **﴿ ذُوقُوا وَذُوقُوا ﴾** **الأنعام: ٦** ويؤكد صلى الله عليه وسلم هذا المنهج في قوله : " إن الله لم يعثني معنتاً ولا متعنتاً ، ولكن بعثني معلماً ميسراً " ^(٨) ، ولهذا كان يوصف صلى الله عليه وسلم أنه : " ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن يأثم " ^(٩) فكان صلى الله عليه وسلم من أيسر الناس وألطفهم وأبعدهم عن الشدة والعنف يقول صلى الله عليه وسلم : " إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا يتزع من شيء إلا شانه " ^(١٠) وكان عليه الصلاة والسلام يقول : " إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف " ^(١١) وإذا أوصى أصحابه بأمر لم يدع أن يذكرهم بالتيسير والتبشير كما فعل في وصيته لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن قال لهما " يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا " ^(١٢) .

حتى الأمر بالجهاد فليس فيه ما ينافي سماحة الإسلام ويسره ، مع أنه حرب وقتال ، فالجهاد إنما شرع لحماية الدين والدفاع عن المسلمين إذا هاجهم من يريد العدوان على دينهم ومقدساتهم وأعراضهم وأموالهم أو منع الوصول إلى تبليغ الناس هذا الدين فلا يلجأ له إلا بعد تعسر دعوتهم ورفضهم لسماع الحق فحينها تزال فقط هذه العقبات وتفتح هذه الحدود ليصل هذه الدين للناس ، مع ملاحظة عدم ترتب أضرار كبيرة عليهم أو على المسلمين نتيجة القتال وإلا اتجهنا إلى جهاد السلم من خلال الحجة والبرهان وفتح المشاريع الدعوية المختلفة ، كما هو الشأن في عصرنا الحاضر ، يؤكد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " جاهدوا المشركين بألسنتكم

^(٨) رواه مسلم (٢٧٠٣) .

^(٩) رواه مسلم (٤٢٩٥) .

^(١٠) رواه مسلم (٤٦٩٨) .

^(١١) رواه مسلم (٤٦٩٧) .

^(١٢) رواه البخاري (٣٩٩٦) .

وأنفسكم و أموالكم " . (١٣) ، لا يكرهون على الدخول في الدين كما قال تعالى : چ ي □ □ □ □ □ □ □ □ □ □
 شروط في صحة الجهاد وحتى لا يكون نوعاً من الإفساد في الأرض أو تكريساً للعنف بين الأفراد
 بغير وجه حق ، فوجد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه
 في خاصته بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : " اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ،
 قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك
 من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتنهن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم ثم ادعهم إلى
 الإسلام فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار
 المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن هم فعلوا ذلك ، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ،
 فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم : أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي
 يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم
 أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله عليهم
 وقتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوا أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة
 الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تحفروا ذممكم (أي تنقضوا
 العهد) وذمة أصحابكم أهون من أن تحفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرت أهل حصن
 وأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك
 فإنك لا تدري : أتصيب فيهم حكم الله أم لا " . (١٤)

وهذا الحديث يبين ملامح السماح حتى في أحوال الجهاد والقتال بالنهي عن الاعتداء
 وعدم الإكراه على الدخول في الإسلام من غير تخيير بين الإسلام والجزية والقتال ، كما يتضح في
 الحديث أيضاً أهمية الوفاء بالعهود مع المقاتلين بل ومعاملتهم بالحسنى .

وحمل هذا المنهج أبو بكر رضي الله عنه كما جاء في وصيته لأسامة بن زيد رضي الله عنه
 عندما قال : "إني موصيك بعشر ؛ لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرمّاً ، ولا تقطع شجراً

(١٣) رواه احمد في المسند (١٢٠٩٧) .

(١٤) رواه مسلم (٣٢٦١) .

مشمراً ، ولا تخربن عامراً ، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، ولا تغرقن نخلاً ولا تحرقنه ، ولا تغلّوا ولا تجبنوا وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له " (١٥) .

ولم تختلف الممارسة من بقية الخلفاء الراشدين في اتباع هذا النهج مع أعدائهم إلا في صور قليلة وشاذة لا تمثل النسق العام الذي سار عليه جيل التأسيس الأول . (١٦)

وفي هذا يقول غوستاف لوبون نقلاً عن روبرتسن قوله : " إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، فإنهم مع امتشاقهم الحسام نشرأ لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية " . (١٧)

لهذا انتشر الإسلام ودخله الملايين ممن لم تصلهم سيوف المسلمين بل وصلتهم عدالة وسماحة هذا الدين فكانوا أهله ودعائه وأخلص أبنائه .

فالتطرف الفكري لا يمكن أن يكون خصيصة دينية أو سمة للمسلمين بل هو انحراف عن الإسلام عانى منه الصحابة والتابعون عقوداً من الزمن كما في شأن الخوارج بطوائفهم المختلفة وجنوحهم الفكري والذي لم يزل نتاجه الشاذ يتوالد عبر القرون كأنموذج فطيع للتطرف الفكري وإن زعموا أنهم مسلمون وإن قرؤوا القرآن ، وهذا ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم تحذيراً من الاغترار بالتطرف من أجل شكله أو مسماه الظاهري فيروى أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما قسم بعض المال على صناديد العرب يتألفهم للإسلام ولم يعط بعض أصحابه ، جاءه رجل كثر اللحية ، مشرف الوجنتين ، غائر العينين ، ناتئ الجبين ، محلق الرأس ، فقال : اتق الله يا محمد !! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " فمن يطيع الله إن عصيته أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني ؟ " ثم أدبر الرجل فاستأذن رجل من القوم في قتله - يرون أنه خالد بن الوليد -

(١٥) تاريخ الطبري ٣ / ٢١٥ .

(١) انظر : الغلو في الدين للدكتور اللويحق ص ٣٥-٤٩ ، الاعتدال في الدين للدكتور الزحيلي ص ٣٥-٤٩ ، فقه الموازنات للدكتور القحطاني ١٦-٥٠ .

(١٧) حضارة العرب ص ١٢٨ في (١) ، نقلاً من كتاب حقوق غير المسلمين في بلاد الإسلام للعايد ص ٣٨ .

فقال صلى الله عليه وسلم : "إن من ضيضيء هذا قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . . . " (١٨) ولهذا يشكّل المتطرف فكرياً حالة لبس عند المسلمين وغيرهم جراء سمته الخارجي مما يجعل الأمر مهماً وخطيراً في آن واحد و يتطلب قيام أهل العلم والفقه في الدين من إزالة هذا الارتباط بين الشكل الديني والتطرف الفكري بالتأكيد على مفاهيم الدين وتوضيح معالمة للناس دون التأثير بأهل الغلو والتطرف .

وأجد من المناسب ذكره التاصيل الشرعي لحقيقة الاعتدال وضوابط الوسط المطلوب ، لأهمية ذلك في معرفة ما يعدّ تطرفاً وما لا يعدّ . كما ذكر ذلك الإمام الشاطبي في قوله : "الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخلة تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال كتكاليف الصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة وغير ذلك مما شرع ابتداءً على غير سبب ظاهر اقتضى ذلك، أو لسبب يرجع إلى عدم العلم بطريق العمل ... فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين كان التشريع راداً إلى الوسط الأعدل لكن على وجه تميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه ... فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابل واقع أو متوقع في الطرف الآخر. فطرف التشديد وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين وطرف التخفيف وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص ويؤتى به مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحاً ومسلك الاعتدال واضحاً وهو الأصل الذي يرجع إليه والمعدل الذي يلجأ إليه .. والتوسط يعرف بالشرع وقد يعرف بالعوائد وما يشهد به معظم العقلاء كما في الإسراف والإقتار في النفقات" (١٩) هـ.

ثالثاً : مرحلة الشباب .. والقابلية للتطرف الفكري .

(١٨) رواه مسلم (١٧٦٥) .

(١٩) الموافقات ٢/ ١٢٤ - ١٢٨ .

تعتبر مرحلة الشباب من أهم مراحل الإنسان لاكتمال قوته وتنام نشاطه ، وهي المناخ المناسب الذي تصاغ فيه الأفكار وتصنع فيه المفاهيم والقناعات ، فالشباب عنوان تقدم الأمم ومصدر أمنها واستقرارها ، ولكن الإصابة بداء الانحراف الفكري يشكل خطراً يوجه هذه القوى والهمم نحو الهدم لا البناء، والعنف لا الأمن والسلام .

ولقد أشار الفخر الرازي رحمه الله إلى بعض خصائص الشباب في قوله : " استبداء الغضب فيهم ، ومتى كان الأمر كذلك فإنه يقل الخوف فيهم ، لأن الخوف والغضب لا يجتمعان ، وقد يتجه بهم هذا إلى ارتكاب الظلم الجهار وإن عاد عليهم بالخزي والعار . . " .^(٢٠)

والناظر في مجتمعاتنا الإسلامية يرى على الصعيد العمري أنها مجتمعات شابة حيث يشكل الشباب دون الخامسة والعشرين أكثر من النصف ، فمثلاً في المملكة العربية السعودية تصل نسبة الفئة العمرية ما بين ١٩ - ٣٠ عاماً تقريباً ٦٠% من مجموع عدد السكان .^(٢١) ونسبة الشباب في المجتمع الأردني تصل إلى ٧٤% من عدد السكان ، ونسبة الشباب في المجتمع الإيراني تصل إلى ٧٠% من نسبة السكان.^(٢٢) ، ومثلها بقية الشعوب الإسلامية . مما يجعل من المتوقع نزوع هذه الفئة إلى التطرف نتيجة أي فعل مؤثر يعكر صفوها وهدوءها فيوجه هذه الطاقات الكامنة إلى معامل تنتج التوتر والعنف .

ولهذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم خوارج آخر الزمان بقوله : " يخرج قوم من أمتي في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون قول خير البرية يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " .^(٢٣)

وقد يحصل التطرف عند الشباب من غير قناعات فكرية شاذة أو متطرفة ، بل يكون نتيجة ردود فعل لما يحصل في بعض المجتمعات الإسلامية من صور القهر أو الظلم أو العدوان

^(٢٠) كتاب الفروسية للرازي . نقلا من مقال "مفهوم التطرف قراءة في شروط الوسطية والاعتدال" للدكتور الدجاني . انظر مجلة التقريب العدد (٣٦) ١٤٢٤هـ .

^(٢١) مجلة عالم الاقتصاد العدد (١٥٠) .

^(٢٢) جريدة الوفد ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٤ م .

^(٢٣) رواه البخاري (٣٦١٠) .

فيدفعهم ذلك إلى أعمال غير محسوبة ولا معروفة العواقب تزيد من هوة الخلاف وتضاعف من القهر والظلم أكثر مما مضى .

لهذا كان الاهتمام بالشباب ميزة واضحة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تظهر في كثرة مصاحبتهم وتحين الفرص لتوجيههم والإجابة على أسئلتهم والاستماع إلى شكواهم واستشارتهم في أمور المسلمين العامة والخاصة . وهذا هو واجب مؤسسات المجتمع المختلفة في عصرنا الحاضر خاصة المؤسسات التعليمية والإعلامية والدينية .

فالواجب على هذه المؤسسات أن تعيد النظر في شؤون الشباب وتسعى إلى تحصينهم من كل فكر دخيل أو بدعة مضلة ، وتنمي فيهم الموضوعية والواقعية وترسم لهم منهج حياة متكامل لا غلو فيه ولا تفريط ، ومهما بلغ حجم الإنفاق والعمل من أجل إصلاح وحماية الشباب فليس بقليل في حقهم فهم ذخيرة المجتمع وكنزه الذي لا يقدر بثمن .

رابعاً: ملامح التطرف الفكري لدى بعض الشباب .

هناك ملامح كثيرة تظهر على سلوك أهل التطرف والغلو مرجعها الحقيقي يعود إلى الخلل الكبير في فهم الدين خصوصاً عند تلقي الأحكام أو الاستدلال بالنصوص ، إن هذا الخلل في منهج التلقي للأحكام أورث خللاً في الواقع التطبيقي لها ، كما أصبح الواقع العملي الوارث لهذا الخلل مجالاً لفوضى الفكر وعنف التعايش والتخاطب بين هذه التيارات والمناهج . ولعلي أضرب أمثلة واقعية لصور هذا الخلل المنهجي في الفقه والفكر أوجزها فيما يأتي :

- الجهل وتحسين الظن بالعقل مع الغرور بالنفس ، هذه الأمور مجتمعة سبب كبير في الخروج عن الاعتدال المطلوب إلى الجنوح وإحداث في الدين . يقول الله تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص ٢٦] ، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : " إن الإحداث في الشريعة إنما يقع إما من جهة الجهل ، وإما من جهة تحسين الظن بالعقل وإما من جهة اتباع الهوى في طلب الحق ، وهذا الحصر بحسب الاستقراء من الكتاب والسنة" (٢٤) .

(٢٤) الاعتصام ٢ / ٤٩٣ .

والناظر في سمات أهل الأهواء والضلال يجد قاسماً مشتركاً من الجهل والهوى يجمع بين أطرافهم المتناقضة . كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم : " يخرج قوم من أمتي في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية .. " (٢٥).

- ويحدث الخلل في منهج التلقي عندما تقدم آراء البشر على نصوص الشرع ، بتقديم تلك الآراء البشرية على المحكم من النصوص ، وتجعل بعض فتاوى أنصاف العلماء حجة على قواعد الشرع وكتلياته فتستباح الدماء والحرمات المعصومة بالنصوص القطعية في دلالتها وثبوتها من أجل فتوى شاذة أو عبارة وردت في كتب بعض الفقهاء لم تدرس بإنصاف ولم تفهم من خلال سياقها العام فتجعل نصاً ينسخ كل الثوابت المحكمة من الدين . وهذا الأمر قد يكون عند بعض المتطرفين مردوداً من الناحية النظرية إلا أن الواقع يشهد بهذا الخلط من تنزيل أقوال الرجال مكان نصوص الشرع . يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : " اتخاذ أقوال رجل بعينه منزلة نصوص الشارع لا يلتفت إلى قول من سواه بل ولا إلى نصوص الشارع إلا إذا وافقت نصوص قوله فهذا والله هو الذي أجمعت الأمة على أنه محرم في دين الله " (٢٦).

- ومن الخلل كذلك ترك تلقي العلم من العلماء ومجالستهم والتلمذ على الأصاغر أو الأخذ من كتب أهل الأهواء ، فهذا الجهم بن صفوان كان على معبر ترمذ وكان رجلاً كوفي الأصل فصيح اللسان لم يكن له علم ولا مجالسة لأهل العلم كغيره من أئمة الفرق وأهل الكلام فضلل الناس بفصاحته وأضلهم بآرائه فكان عاقبة من اتبعه خسراً ونكالاً (٢٧) وقد يتكرر هذا الحال في كثير من غلاة بيناتنا المعاصرة . ومن الغريب أيضاً في حال بعض المتطرفين من يجعل حجته فيما يقرأ من فتاوى وأخبار وأحكام مرجعه مواقع يزورها على الشبكة العنكبوتية مما لا يعرف مصدرها ولا يعلم قائلها ويشك في صحة مصدرها ويحلل ويحرم ويوالي ويعادي بناء على ما جاء فيها من غير تثبت أو تمحيص!!

(١) رواه البخاري (٣٦١٠)

(٢٦) إعلام الموقعين ٢ / ٢٣٦ .

(٢٧) انظر : دراسات في الأهواء والفرق للعقل ٢ / ١١٩ .

- ومن صور الخلل أيضاً : التعصب للرأي تعصباً لا يعترف معه للآخرين بوجود ، وجود الشخص على فهمه جهوداً لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق ، ولا مقاصد الشرع ، ولا ظروف العصر ، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين ، وموازنة ما عنده بما عندهم .
وقد يجيز لنفسه أن يجتهد في أعوص المسائل ، وأغمض القضايا ، ويفتي بما يلوح له من رأي ، وافق فيه أو خالف ، ولكنه لا يجيز لعلماء العصر المختصين ، منفردين أو مجتمعين ، أن يجتهدوا في رأي يخالف ما ذهب إليه .

وتبرز بعض مظاهر هذه الخلل فيما لو أفق فقيه بفتوى فيها تيسير على خلق الله ، ورفع الحرج عنهم ، فهو في نظرهم متهاون بالدين . وإذا عرض داعية الإسلام عرضاً يلائم ذوق العصر ويناسب احتياج الناس ليبين لهم حقاً ويدفع عنهم باطلاً ، فهو متهم بالهزيمة النفسية أمام الغرب وحضارة الغرب . . . وهكذا .

- ومن أهم ملامح الفكر المتطرف استخفافه بالتكفير والتبديع ، وإتهام جمهور الناس بالخروج من الإسلام ، أو عدم الدخول فيع أصلاً ، كما هي دعوى بعضهم ، وهذا يمثل قمة التطرف الذي يجعل صاحبه في واد ، وسائر الأمة في واد آخر . مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما " (٢٨).
خامساً: التطرف الفكري .. وعوائق النهضة .

يشكل التطرف الفكري أزمة حقيقية للفكر . . فضلاً عن أزماته الأخرى إذا تجسد في أرض الواقع ، ولكي نبحت عن مخرج لهذه الأزمة الفكرية يجب أن نحلل الأسباب ونتبع الجذور التي أدت إلى هذا التطرف من مجتمعاتنا الإسلامية على وجه الخصوص .
إن الممارسات الفكرية المناهية للموضوعية لا ينبغي أن يستهان بها حتى لو كانت آثارها المبدئية ضعيفة ولكنها قد تنمو مع مرور الزمن لتصبح أكثر بعداً عن الوسطية والموضوعية معلنة نشأة التطرف بكل أطيافه الفكرية .

فالتعصب للأفراد أو المذاهب أو الجماعات يجعله لا يرى الحق إلا من خلالها ويصادر بالتالي عقله ويفكر بمنطق غيره ويرفض كل رأي يخالف ما تعصب عليه من رأي أو طريقة مما يزيد هوة الافتراق في المجتمع وربما يؤول الوضع إلى تنازع واقتتال بين أفراد المجتمع الواحد .

إن المبالغات التي أصبحت سمة للفكر المتطرف تجعله يبالغ في ذم من يخالفه إلى درجة الإسقاط والإقصاء وفي المقابل المدح والثناء على من يوافقه لدرجة التقديس والتنزيه عن الأخطاء .

وهذا ما قد يؤدي في المستقبل إلى نشوء عقليات لا تنظر للحقائق إلا من خلال النظر العاطفي المجرد . وهذا ما أورث الأمة الكثير من الفتن والرزايا والثورات المسلحة ، أو ساهم في بناء عقليات لا تنظر للقضايا أو الواقع أو حتى الشرع إلا من بُعد واحد وتصرّ على أن هذا الجزء هو الحقيقة المطلقة. إن رؤية نصف الحقيقة شر من الجهل بها ، لأنها توجد إنساناً يظن أنه يعرف كل شيء وهو لم يعرف إلا الجزء الذي يجعله مسماراً في آلة كبيرة دون أن يعرف شيئاً عن تلك الآلة .

وأهم ما يساعد على نشوء هذه العقليات ذات البعد الواحد سواء كانوا من المتطرفين أو من غيرهم ؛ فقر البيئة الطبيعية أو الثقافية بمعنى ضعف الخلفية العلمية والمنطقية لتحليل المشكلات وعلاج الأزمات فيكون تفكيره لا يخرج عن ذلك الإطار الضيق الذي يشكل حصيلته المعرفية وخبراته الحياتية، ولهذا ألزم العلماء من يجتهد في أحكام الشريعة أن تتحقق فيه الكثير من الشروط العلمية والفكرية ليستجمع أدوات النظر الصحيح والمعرفة الشاملة .

إن عقلية البعد الواحد يصعب عليها أن تحاور في هدوء أو تسمع النقد المقابل دون تشنج ؛ لأنها اعتادت أن تنظر لنفسها نظرة اعتدال وكمال وإحتكار للحق والصواب وكل من خالفها لن يعدو أن يكون ناقص فقه أو دين .

إن تبسيط الأمور العظيمة والمشكلات المزمنة دون العمق في النظر والتحليل المنطقي لها سمة لأهل التطرف والغلو، بالإضافة إلى الانغلاق التام نحو الاستفادة من الثقافات أو العلوم الأخرى المعنية في ذلك . وهذا لن يزيد قضاياها إلا إشكالاً ورجعية .

إن هذه الممارسات الفكرية وإن ظلت في الخفاء أو لم تسهم في إثارة عنف أو تدمير في الواقع لا ينبغي لنا تجاهلها أو الغض عنها . فمعظم النار من مستصغر الشرر ، والواجب على

مؤسسات المجتمع المختلفة أن تعيد صياغة الذهن وتنمية الوعي بالتفكير الموضوعي^(٢٩) وتعميق الحوار وتعليم أدب الاختلاف والإسهام بإيجاد مناهج تعليمية تطور هذا النمط من التفكير والتعليم .

فالتطرف الفكري أصاب الكثير من المجتمعات على مستوى العالم ، ولكن آثاره تختلف من مجتمع إلى آخر حسب مستوى الوعي لدى الأفراد والمسؤولين ؛ ولهذا لا ينمو إلا في مناخات العقول ذات البعد الواحد^(٣٠) .

إن علاج ظاهرة التطرف في المجتمعات الإسلامية تشكل أولوية لدى صنّاع القرار وذلك للآثار الخطيرة الناجمة عنها على مستوى الفرد أو الدولة ، ولا خلاف في أهمية الاحتياطات الأمنية لتضييق انتشار هذا الفكر والحدّ من خطره ، إلا أن عجلة التنمية ودولاب النهضة لا ينبغي أن يتوقف إلى حين القضاء عليها، وإشاعة فقه النهضة والمدنية يعتبر من الضروريات في المرحلة التي نعيشها هذه الأيام مما يجعل الكل يسعى للبناء وينظر للمستقبل ويتنافس مع الآخر في مدارج الحضارة والتقدم .

لقد مرت كثير من الشعوب بأزمات فكرية وتقاطعات عنيفة في الرؤى والتوجهات الاجتماعية والسياسية ولكن خيار التقدم والنهضة لم يكن ضحية لهذه الخلافات، بل نجدهم يسارعون في الانسجام والاتفاق عما تهدد حضارتهم أو يُسلب تقدمهم . ومن الأمثلة على ذلك في وقتنا المعاصر دولتي الهند والصين فلا اعتقد ان دولاً تزخر بالأعراق والأديان والخلافات المذهبية والظروف الاقتصادية الصعبة في ظل انفجار سكاني رهيب ما يوجد في هذين البلدين ومع ذلك فقد بلغ النمو الاقتصادي في الهند عام ٢٠٠٣م ما نسبته ٨% وهو معدل مرتفع وفق المؤشرات الاقتصادية العالمية^(٣١) .

أما في الصين فقد انجزت خلال الخمسين عاماً الماضية انجازات هائلة تجاوزت بذلك الظروف الاستثنائية فقد بلغ الناتج القومي عام ٢٠٠٠م ألف مليار دولار وبلغ احتياطها من

(٢٩) انظر : فصول في التفكير الموضوعي لبكار ص ١٨٣ - ٢٦٧ .

(٣٠) انظر : فقه الحقائق للقحطاني ص ٣١ - ٣٦ .

(٣١) مجلة تجارة الرياض العدد (٤٩٩) صفر ١٤٢٥هـ .

العملات الصعبة ٦٠ مليار دولار لتحتل المرتبة الثانية في العالم كما ودع ٢٠٠ مليون فرد الفقر خلال العشرين سنة الماضية أي ما يساوي عدد سكان أمريكا مجتمعين⁽³²⁾.

والمملكة العربية السعودية مع معاناتها من أضرار هذا الفكر المتطرف بشكل مؤثر ومدمر ، إلا أن الجهود فاعلة ومتواصلة لتحجيمه واستئصاله مما ساهم في انتهاء الفكر المتطرف بشكل كبير وتراجع رموزه والمتأثرين به ، لتبقى مفاهيم التسامح والاعتدال هي منطلقات العلم والعمل والحضارة، ولعل هذه الحملة الوطنية للتضامن ضد الإرهاب التي تقيمها حكومة المملكة من ١٤٢٥/١٢/٢٥ هـ حتى ١٤٢٦/١/٩ هـ تجسيد حقيقي لمدى التلاحم الرسمي والشعبي ضد التطرف الفكري والرفض الواقعي لممارساته المدمرة في المجتمع .

وختاماً: أسأل الله أن ينعم على بلادنا وبلاد المسلمين بالأمن والأمان والرحمة والغفران إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وسلم .

المراجع

- ١- معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس اللغوي، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، الطبعة الاولى ١٤١١ هـ.
- ٢- المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، طبعة المكتبة العلمية بطهران.

(32) جريدة البيان الإماراتية ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٠ م .

- ٣- تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر الطبري الطبعة الأولى دار الكتب العلمية .
- ٤- حقوق المسلمين في بلاد الإسلام، للدكتور/ صالح العايد، دار اشبيليا ، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ.
- ٥- الاعتصام، لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق سلم الهلالي، دار بن عفان، الطبعة الرابعة ١٤١٦هـ.
- ٦- إعلام ، للإمام ابن القيم الجوزية، تصحيح محمد عبد السلام إبراهيم، طبعة دار الكتب العلمية.
- ٧- دراسات في الأهواء والفرق، للدكتور/ ناصر العقل، دار الوطن. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- ٨- فصول في التفكير الموضوعي، للدكتور عبد الكريم بكار، دار القلم والدار الشامية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
- ٩- فقه الحقائق، للدكتور/ مسفر القحطاني، دار الذخائر، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ.
- ١٠- الاعتدال في الدين، فكري وسلوكاً، ومنهجاً، للدكتور/ محمد الزحيلي، دار اليمامة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ.
- ١١- الغلو في الدين ، للدكتور/ عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.
- ١٢- الموافقات . لأبي اسحاق الشاطبي . تعليق ، الشيخ محمد دراز . طبعة دار الكتب العلمية.
- ١٣- فقه الموازنات ، للدكتور مسفر القحطاني ، دار الذخائر الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ.